

فيلم «الجلد» والطريق إلى التوبة

من التعصب العنصري إلى التسامح مع النفس والعالم



بطل تراجيدي يبحث عن الخلاص

مناهضة الجماعات العنصرية برصد وتتبع وتصيد كل من يلجأ فيهم ما يشي بالشك والاستعداد للتمرد على حياتهم، ومن ثم «التوبة»، عن طريق الإقناع والتمهيد وتقديم يد المساعدة.

وجنكز عن صلة بالمباحث الفيدرالية، وقد حصل على معلومات كثيرة من الوكالة عن أفراد كثيرين من بينهم بريون. وهو يستطلع مساعده وتوفير الحماية له ولعائلته، ولكن مقابل الحصول على معلومات يمكن استخدامها في إقامة الدعوى القضائية ضد الجماعة المتطرفة وقيادتها.

هذا فيلم قضية، ولكنه أساساً فيلم دراسة شخصية، صحيح أنها شخصية حقيقية لكنها توفر أساساً درامياً جدياً مع إضافة بعض الرتوش التي تجعلها أكثر درامية. وهو يستند إلى سيناريو متماسك، يمنح الأطراف المختلفة والشخصيات الثانوية مساحات جيدة، وينجح المخرج مع فريق التصوير، في تصوير مشاهد خارجية شديدة القوة والتأثير منها مشهد هجوم العصابة على مسجد باوي عدداً من المسلمين وإجراعه بمن فيه، ثم قتل أربعة مكسيكيين بعد تقييدهم داخل سيارة وإشعال النيران في السيارة.

لا شيء في حياة بريون سوى الإفراط في تناول الخمر والمخدرات، وكأنه يريد أن يهرب من مواجهة حقيقة نفسه

ورغم هذا العنف البالغ، نشاهد أيضاً الكثير من المشاهد التي تجعلنا نشعر بتعزق الشخصية الرئيسية، ومعاناتها ورغبتها في الخروج من جلدنا القديم مهما كان الألم، وهو ما يتجسد بشكل ملموس في «إزالة الوشم» وتخليص الجسد من نزعة الشر، وكأننا أمام عملية شبيهة بطرد الأرواح الشريرة.

لكن النزوع نحو الخلاص يبدو كما لو كان اتجاهنا نحو تحقيق «التوازن» النفسي بعد العثور على الأسرة الحقيقية التي يصبح البطل - اللابل، مسؤولاً عنها وبعد العثور على الحب، بينما كان الدافع للتحول في فيلم «التاريخ الأمريكي إكس» هو تجربة السجن التي كشفت للبطل أن الآخر - الأسود قد يكون أكثر إنسانية ورقة وسمواً من رفاقه المفترضين، البيض العنصريين الذين بغضبونه يضربونه ويسخرون منه في السجن.

شارين الأم الحاضنة المغوية التي تتحسس أجساد «الأولاد» الذين تتبناهم وتؤهلهم لتحقيق أهداف الجماعة، فهي على ما يبدو، تمنحهم بعض المتعة الحسية، وهذا ما يوحي به بوضوح المشهد الذي نراها فيه وهي تقص شعر فتى يدعى «غافين» يلتقطونه من الضياع، من الجوع والتشرد والصعلة، ويقدمون له الطعام والماوى والأبوة، ويدربونه على الكراهية والعنف في إشارة واضحة إلى ما حدث في الماضي مع بريون نفسه. «الآن» (سوب) هو القادر على توفير الحماية، و«الأم» (شارين) هي التي تغوي وتحتوي، وهي تمارس الغواية حتى مع الفتيات (تحاول استدرج ابنة جيني الكبرى).

الماضي والحاضر

ينقسم الفيلم إلى فصول تتعاقب من الزمن المضارع مع تعاقب جلسات إزالة الوشم من جلد البطل، التي استغرقت 300 يوم كما يقول الفيلم، ومع كل جلسة نشاهد الألم الشديد الذي ينجم عن استخدام أشعة الليزر في أماكن شديدة الحساسية قرب الأنف والفم والرقبة، ثم تنتقل في «فلاش باك» لنتابع أحد فصول القصة.

مشاهد العنف العام والاحتفالات الاستعراضية وشرب الخمر بجنون وكان بطناً ينتقم من العالم، من وحدته وفراغه وطفولته التعيسة، ثم بدء علاقته بجيني، ثم ما ينشأ من الشد والحذب، وكيف يواجه بريون مقاومة شديدة من جانب «الجماعة» بعد أن يبدأ في التغيير، يحاول أولاً استرضاءها، لكنه يجد نفسه ممزقاً بين ولائه القديم للجماعة، وبين رغبته في تغيير حياته وأن يصبح ربي أسرة حقيقياً بعد تعمق علاقته بجيني وبعد أن أصبحت أيضاً حاملاً منه.

وفي خضم شعوره بالتمزق يحاول أن ينهي حياته، يقود السيارة في الليل، يترك عجلة القيادة، يصرخ غاضباً ويخط رأسه في زجاج السيارة، يحرف ويكاد يصطدم بشاحنة قادمة في الاتجاه المعاكس، لكن إرادة الحياة تغلب على رغبته في الموت، كما تغلبه الرغبة في إنقاذ أسرته التي أصبحت مبرراً لوجوده، ليعود ويظل ينتقل مع الأسرة من مكان إلى آخر، فقد حسم أمره أخيراً واختار الولاء لأسرته الجديدة وأصبح بالناتالي خائناً في نظر الجماعة، تحاول قتله وقتل جميع أفراد عائلته، إلى أن يتفق أخيراً مع «داريل جنكز» على «الخروج».

وداريل جنكز رجل أسود لا يؤمن بالعنف المضاد، بل أخذ على عاتقه

تناول الخمر والمخدرات، وكأنه يريد أن يهرب من مواجهة حقيقة نفسه. غير أن الفيلم ليس عن سيكولوجية هذه الجماعات المتطرفة وأيديولوجيتها ودوافعها وكيف تدار وتمول.. إلخ. لكنه أساساً دراسة في شخصية شاب انتمى كاقوى ما يكون إلى إحدى هذه الجماعات التي لم تعد حالياً على نفس صورتها القديمة، ولم يعد أعضاؤها يرتدون مثل هذه الملابس ولا يقيمون احتفالات عامة في الغابات تسودها الفوضى والعنف حتى بين بعضهم البعض ولم تصب بالضرورة من طليقي الرؤوس والأجساد المليئة بالوشوم المخيفة على نحو ما نرى في الفيلم، بل أصبحوا يتخذون أشكالاً أكثر عصرية، يستخدمون الفضاء الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي للترويج لأفكارهم، بل لقد وصلوا إلى مواقع السلطة والنفوذ في بلدان عديدة، وفي الولايات المتحدة أصبح لهم ممثل نافذ في «البيت الأبيض» جاء بانتخابات «ديمقراطية»!

الرحلة نحو الخلاص

هذه الرحلة «الروحية» - إن جاز التعبير - من الظلام إلى النور، ومن العنف والكراهية والرفض والغضب إلى الشك ثم التوبة والندم والإنشاق عن عالم الكراهية، كما في حالة بريون ويندر، هي ما يسعى الفيلم لرصده وتصويره من خلال دراما قوية قد يشوبها بعض العيوب في السرد مع بعض الاستطرادات واختلاق بعض المواقف التي تضفي مسحة ميلودرامية قرب النهاية، إلا أن ما يبقى على جانبيه الفيلم وقدرته على النفاذ إلى القلب والعقل، ذلك الأداء البديع من جانب جيمي بيل.

ولا شك أن اختيار جيمي كان من البداية اختياراً صائباً، فالممثل الإنكليزي يتمتع بطاقة جسدية هائلة بجسده الفارع، وقوة تعبيرية كبيرة بوجهه ذي العظام البارزة وعينه المغلقتين بالذنب والألم والمعاناة. وهو جيد في التعبير عن الشد والغضب والتعصب، ثم عن المعاناة الداخلية والحيرة التي تجعله يبدأ في التشكك في جدوى حياته كلها قبل أن يلتقي المرأة التي يقع في حبها لتصبح شريكة الثلاث «أسرته البديلة». هذه الأسرة بكامل أفرادها بل ومع كلبها «يوس» ستصبح البديل الذي كان بريون يبحث عنه وتصور أنه عثر عليه في كل من بيل و«شارين».

فيلم «الجلد» هو أول عمل يكتب له السيناريو ويخرجه الإسرائيلي غاي ناتيف في إنتاج أميركي، وقد نجح فيه إلى حد كبير



السود جيف، ويقومون بحق جلده بمادة تجعله أسود اللون ثم يلقون به قرب منزله في الليل. وما سيدت له بعد ذلك سيكون عقاباً مأساوياً.

هذا فيلم كالطلقة المباشرة.. إيقاع سريع، تصوير ليلي وصورة قائمة تمتلئ بالظلال ولقطات قريبة خانقة، وشخصيات تتحرك كالاشباح. يبقى حتى النهاية دون أن نعرف ما الذي فعلونه بجيف بالضبط، ثم تأتي المفاجأة عندما نكتشف أنه قد أصبح «زنجياً» وأنه يتعين عليه أن يواجه زوجته وابنه في الليل كص يحاول التسلل مهزوماً محطماً مرهقاً عاجزاً إلى منزله.

من فكرة تغيير الجلد وكيف تُغَيَّر العاينين جلودهما كما تستغل لون جلدها في التخفي ومفاجأة الحيوانات التي تهاجمها، وهي فكرة تتردد في الفيلم الروائي القصير، تنتقل إلى الفيلم التسجيلي «إزالة الكراهية» الذي يوق مخرجه أهم جلسات إزالة النقوش والوشم المرسوم على جلد بريون ويندر بأشعة الليزر لكي يتخلص نهائياً من صورته القبيحة المخيفة التي تحول بينه وبين العودة للاندماج في المجتمع بعد أن هجر الجماعة النازية، كما يروي هو وزوجته والمسؤول في الجمعية التي تدعى «إزالة الكراهية» التي تقاوم والطبيب الذي أزال الوشم، تجربتهم معه.

أما فيلم «الجلد» الطويل، فهو يبدأ ويظهر بريون ويندر الذي تغطي جسده كله الوشم القبيحة: الصليب المعقوف ورمز الشرطة النازية والجمجمة والأسهم الحادة المدنية، وغير ذلك. يشارك ضمن جماعته من النازيين الجدد في الاعتداء على مظاهرة نظمها مناهضو العنصرية في 2005 في أوهايو (ينتقل الفيلم بين فصوله وأحداثه من خلال كتابة التواريخ والأماكن).

يطارد بريون أحدهم ويضربه ثم يحفر في وجهه بالسكين صليبا ويتركه وهو ينزف. إنه جزء من عائلة «فريدكرغر» (بيل كامب في دور الأب الروحي المهيم، زعيم الجماعة) وزوجته «شارين» (فيرا فاميجا تؤدي دور شخصية ساحرة منومة شديدة الجاذبية). الاثنان يعاملانه كابنهما تماماً. لقد التقاه وهو مرهق شاب ضائع وجائع، متمرد بلا عائلة، وقاما بتربيته على العنف والكراهية والعنصرية ليصبح أداة ضمن أدوات أخرى عديدة في أيديهم، للفتك بالآخرين. لا شيء في حياة بريون سوى الإفراط في

لا يوجد وقت أفضل من وقتنا الحالي يقتضي أن تتصدى السينما لكشف تنامي العنصرية التي كانت كامنة في ما مضى أو محدودة النطاق، وتوسعت وخرجت إلى العلن أخيراً بل وأصبحت جزءاً من الخطاب الرسمي في الكثير من دول العالم المتقدمة.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

فيلم «الجلد» (Skin) هو أحدث الأفلام وأكثرها تعبيراً عن الهوس العنصري بفكرة «تفوق الجنس الأبيض» والحركات المتطرفة «النازية الجديدة» المعادية للملونين والأجانب بوجه عام، وهو أول عمل يكتب له السيناريو ويخرجه الإسرائيلي غاي ناتيف (Guy Nattiv) في إنتاج أميركي.

يعتمد الفيلم الذي يقوم ببطلته البريطاني جيمي بيل (الذي لمع في بداياته الفنية في فيلم «بيللي إيوت» (2000) عندما كان في الرابعة عشرة من عمره) على التجربة المبررة الحقيقية التي عاشها بريون ويندر، الشاب الأميركي المتطرف الذي التحق بإحدى الجماعات النازية الجديدة من طليقي الرؤوس، حيث مارس الكثير من أعمال العنف إلى أن جاء وقت بدأ يتشكك فيه ويتساءل عن جدوى ما يفعله، ثم قرّر التوبة منشقاً على «الجماعة» التي احتضنته وأمنته على أن يصبح جزءاً من «قطع» همجي عنصري متطرف يمكن التحكم فيه وتوجيهه.

كانت هذه القصة الحقيقية قد ظهرت للمرة الأولى في الفيلم التسجيلي القصير «إزالة الكراهية» (45 دقيقة - Erasing Hate) الذي أخرجه بيل برامبل وصور فيه مرحلة ما بعد «التوبة» في حياة بريون ويندر، وكان مدخله هو نفس المدخل الذي استند عليه المخرج الإسرائيلي في فيلمه الأميركي الأول، أي التوقف أمام جلسات إزالة الوشم التي تغطي جسد ويندر دلالة على خروجه من عالم «الكراهية».

أما غاي ناتيف (الإسرائيلي) فقد أخرج أولاً فيلماً روائياً قصيراً (21 دقيقة) بعنوان «الجلد» أيضاً عن كيف يتم تشكيل وعي طفل بالمفاهيم الغاشية. ولعل مساهمة فيلم «الجلد» الطويل لا تكتمل سوى بالعودة إلى هذين المصدرين: الفيلم التسجيلي «إزالة الكراهية» والفيلم القصير «الجلد».

المصدر الثالث هو فيلم «التاريخ الأميركي إكس» (X American History) للمخرج توني كاي، بطولة إوارد نورتون. وكان أيضاً عن شخصية حقيقية مرت تجريبية مماثلة، ولكن هذا الفيلم يعود إلى العام 1998، أي قبل أن تطفو الظاهرة العنصرية إلى الواجهة وتتصدر الأخبار وقبل أن نصل إلى الأحداث الدامية في مدينة شارلوت سقيل بولاية فيرجينيا والمصادمات الدامية بين النازيين الجدد ومناهضي العنصرية، التي تقاوم الرئيس دونالد ترامب عن إدانتها.

مصادر الفيلم

يعتبر فيلم «الجلد» الروائي القصير (الحائز على الأوسكار)، تمهيداً للفيلم الطويل وإن كان الموضوع يختلف، فهو يروي قصة رجل عنصري متطرف طليق الرأس «جيف» (جوناسان تاكي متزوج من امرأة بديلة (دانييل ماكدونالد وهي نفس الممثلة التي ستقوم بدور الزوجة في الفيلم الطويل) ولديه ابن اسمه «تروي» في السابعة من عمره.

وهو يدرب ابنه على التصوير وإطلاق النار وترديد الشعارات العنصرية. وعندما يذهب ليتسوق مع ابنه وزوجته يكون هناك في المتجر رجل أسود يسلم بدمية في يده تلفت نظر تروي فيداعبه الرجل الأسود من بعيد ملوفاً بالدمية.

هنا يلجأ جيف فيوجه له شتائم عنصرية قبيحة، لكن الرجل لا يريد تصعيد الموضوع فزوجته وابنه وابنته في انتظاره في السيارة خارج المتجر، يغادر الرجل لكن جيف يتصل باصدقائه الذين ينتظرونه في الخارج.. أي عصابة المتطرفين النازيين الجدد فينهالون على الرجل ضرباً وتنكيلاً ويتركونه بين الحياة والموت. بعد فترة تختطف مجموعة من